

آفاق المعرفة

المذكارات في الشرق نساء الشرق في عيون الرحالة الغربيين

د. عبد النبي اصطييف

على الرغم من اختلاف النقاد في الشرق والغرب والجنوب والشمال في تقويمهم لكتاب أدوارد ، و ، سعيد الاستشرافي (١) (١٩٧٨) ، وفي تقديرهم للاسهام الحقيقي الذي قدمه الى الدراسات الانسانية المتصلة بتمثيل « الآخر » فان ثمة اجماعاً حقيقياً فيما بينهم على اهمية ما وفره من فرص وحوافز على إعادة التفكير في التقليد الشعافي الموسوم بـ « الاستشراف » Orientalism بشكل خاص .

- د. عبد النبي اصطييف : دكتوراه فلسفية في النقد المقارن ، استاذ مشارك في الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق . له عدد من المؤلفات الجامعية ، ينشر في العديد من الدوريات المطبوعة والغربية .

وفي كل أشكال تمثيل « الآخر » بشكل عام ، بغض النظر عن تحريره من القسمة الوجودية (الانطولوجية) والمعرفية (الاستمولوجية) للعالم بين شرق وغرب وجنوب وشمال و « هم » و « نحن » ، وكل ما يتصل بهذه القسمة من قيم ومفاهيم ومقاييس ومعايير ومستويات وأحكام .

والحقيقة أنه منذ ظهور كتاب الاستشراف عام ١٩٧٨ ، وترجماته العديدة التي تجاوز عددها العشر ، لا يكاد ينصرف عام دون أن ينشر كتاب يحمل في طياته إقراراً صريحاً أو ضمنياً باستلهام أفكار سعيد واستخدامها حواجز على اهادة التفكير في وجوه العلاقة المختلفة بين الشرق والغرب . وربما كان كتاب جودي مابرو Judy Mabro المعنون بـ « انصاف حقائق محجوبة : تصورات الرحالة الغربيين للنسوة الشرقية أو سطيات » (٢) الذي صدر في أواخر العام الماضي (١٩٩١) عن دار نشر توريس Tauris وشركاه في لندن ونيويورك ، من أبرز هذه الكتب بسبب عنائه بتمثيل « الآخر » The Other في ثقافة الغرب بشكل عام ، وبتمثيل المرأة أو النصف الأكبر معاناة من هذا التمثيل بشكل خاص ، في كتابات الرحاليين الأوروبيين في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين .

ويسعى هذا الكتاب ، الذي يعني بالطريقة التي اختار هؤلاء الرحالة أن يصوروا فيها أولاد النساء في كتب الرحلات ، والادلة ، والمذكرات الخاصة بهم ، ضمناً إلى توضيح الموقف الأوروبي تجاه المرأة الشرقية أو سطية بكل ما ينطوي عليه من كراهية للمرأة وعنصرية ونخبوية (٣) (ص ٢٥٥) هذا الموقف الذي يستند إلى « أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق و (في معظم الأحيان) « الغرب » » (٤) والذي كان المنطلق في انتاج مجموع هائل من الكتابات المتعلقة بالشرق وسكانه وعاداته وعقله وقدره وما إلى ذلك .

ولما كانت جودي مابرو نفسها امرأة معنية بقضية المرأة المعاصرة فقد كان من الطبيعي أن تركز اهتمامها على ما كتبه هؤلاء الرحالة الغربيون في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين في مؤلفاتهم المختلفة عن المرأة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، لأنها ترى لهم القاعدة التي

يصدر الغربيون عنها في مواقفهم المعاصرة من الشرق عامة والمرأة الشرقية خاصة . ولأنها معنية كذلك ببيان الحقيقى والتخيل فى هذه الكتابات فإنها تدرس كذلك ما حمله هؤلاء الرحالة معهم إلى الشرق من أفكار عن المرأة ودورها في المجتمع الأوروبي ، لأنهم لم يحاولوا أساساً النظر إلى المرأة الشرقية إلا من خلال عيونهم الغربية وتبعاً لتصوراتهم المسبقة عن المرأة في مجتمعهم . وهي محققة في ذلك ، فالرحلة كما تشير إلى ذلك رنا قباني .

« يبدأ رحلته وقوه امة او امبراطورية تمده (على الرغم من كون ذلك كله عن بعد) عسكرياً ، واقتصادياً ، وفكرياً ، وكما هي الحال في الغالب روحياً . ويشعر بأنه مكره على أن يسجل ملاحظاته وهو واع بجمهور معين : أبناء بلده ، أو زملائه المهنيين ، أو راعيه ، أو مليكه . ويؤثر الوعي بهذا الجمهور في ادراكه ، ويدفعه لاختيار انواع معينة من المعلومات ، أو لتأكيد وجوه من البلد تجد أصداء لها في ثقافة امته . وكذلك فان وضعه الا جتماعي يلون رؤيته . (ولما كان ينتمي في الغالب إلى طبقة تمكنه من الشروع في رحلات مكلفة وذات امتيازات) فانه يمثل عادة المصالح وانظمة الفكر التي انشئء عليها » (٥) .

ان الرجال ، وباختصار شديد ، ينظر إلى موضوعه بمنظور تحدد مداه وعمقه مسبقاً ، ولذا كان ما يراه ويدونه من انشطةات تبعاً لهذه الرؤية قادراً على الوشایة بمنتجه أكثر مما هو قادر على الاعلام بموضوعه ومعنى هذا أن قراءة هذه المختارات التي يقدمها كتاب السيدة مابرو يمكن أن يكشف الكثير عن العقل الذي انتجها .

عن الشرخ الذي امتهوره منذ زمن .

عن التصورات المسبقة التي تحكمه .

عن الأهواء والنزغات والرغبات التي تحول بينه وبين الفيام بعملياته في الشرح والتحليل والتفسير والحكم على نحو صحي وسلمي .

عن المصالح والمقاصد غير الإنسانية التي تقيده ، أو بعبارة أخرى عن قصوره البين في نقل آية معلومات موضوعية وحقيقة ودقائقـ عن

موضوع ادراكه الذي هو الآخر - المرأة الشرقية التي انتهكت حقوقها الانسانية مرتين على يد هذا العقل . مرة بدعوى كونها شرقية ، وأخرى بدعوى كونها امرأة . (ص ٣٩) .

يقع كتاب السيدة مابرو في مقدمة (ص ص IX-X) ومدخل (ص ص ١ - ٢٧) واثني عشر فصلاً امتدت على ما ينوف عن مائتين وخمسين صفحة وثبتا بمصادر المدخل ومراجعه التي اعتمدت عليها في تفكيك بنية انشاءات الرحاليين والكشف عن طبيعة العقلية العنصرية التي النتجتها ، وثبتا آخر بالمصادر الفنية التي استقت منها مقتطفاتها الدالة الموجبة والمنشورة في عدد من اللغات الاوربية الحديثة كالانكليزية والفرنسية والايطالية والتي يقرب عدد مجلداتها من المائتين ، وذلك رغبة في مساعدة المهتمين في تتبع الموضوع على المضي في مساعهم ومتابعته متابعة وثيقة .

فاما المدخل الشائق والفنى، الممتع والمفيد، والذي تحاول السيدة مابرو أن تقدم من خلاله مقتطفاتها المختارة بعناية شديدة ، فإنه يسعى إلى وضع القارئ في السياق الذي يخوله فهم هذه المقتطفات التي توزعت على الفصول الائتنى عشر . وربما كان من أبرز ما يؤكد هذا المدخل أن الرجال الاوريبي لم يكن في وضع يسمح له بأن يرى الحياة في الشرق الأوسط وشمال افريقيا على حقيقتها . فبادىء ذي بدء كان الحجاب والحرير بالنسبة للأوريبيين وعلى مدى القرون زرين قويين أثراً في نفوسهم مشاعر الفتنة والنفور في آن معاً لأنهما يمنعان الملاحظ من رؤية المرأة الشرق - اوسطية أو الحديث معها ويوقطان في نفسه مشاعر الاحتياط والسلوك العدواني . وكذلك فقد وفراً لهؤلاء الرجال تجرب عجيبة ومشيرة مع « الجمال الكامن وراء الحجاب » ، « الضوء المنبعث من الحرير » . (ص ٤) . ولكن التركيز على هذين الرمزين من جانب الرجال حالة حال بينهم وبين فهم وجوه مهمة من حياة المرأة في الشرق الأوسط ، واسوا من هذا أن أيّاً منهم لم يكن ليفهم حقيقة الحجاب أو الحرير في الشرق ، ولا حتى دلالته اللغوية (ص ٧) بل أن الصورة التي نقلوها عنهم غريبة جداً ليس فقط بالنسبة للأوريبيين

أنفسهم ، بل وللشرقيين أيضاً الذين يستطيعون أن يدركوا بسهولة أنها من صنع الخيال الأوروبي المفتون مسبقاً بعالم ألف ليلة وليلة أكثر منها انعكاساً لواقعهم ، وأنها كانت تستهدف الترويج للكتب وتشويق القارئ وإثارة فضوله ، لأن الحديث عن المرأة الشرقية على هذا النحو في المجتمع الأوروبي كان يرضي فضول أفراده عن المجتمعات الأخرى من جهة ، ويؤكد تفوق ثقافتهم على ثقافات تلك المجتمعات من جهة أخرى . وفضلاً عما تقدم فإن جميع صور المرأة التي تبدو فيها مغبونة في حقوقها ، مزدرأة من مجتمعها ، والتي ينسبها الرحالة الأوروبيون – من الجنسين – إلى المرأة الشرق – أوسطية ، ناديين فيها حظها ومصيرها ، ومظهريين رغبة مصطنعة في تحريرها ، كانت تنطلق من موقف منافق في النظر إلى حقوق المرأة في المجتمعات الأوروبية ذاتها التي لم تكن في ذلك الوقت تقيم وزناً للمرأة مما كانت تقيمه المجتمعات الشرق الأوسطية . « فالنساء مثلاً كن في « المؤسسة الفيكتورية » مجموعة هامشية تماماً مثلما كانت الأجناس الأخرى مجموعة هامشية في نطاق « المؤسسة الاستعمارية » (١) لقد ازدرى هؤلاء الرحالة « رجال الشرق ونساءه وحقروهم مثلما ازدوا المستضعفين في المجتمع الفيكتوري وحقروهم (٢) ، بما في ذلك المرأة التي كانت تباع وتشترى في أوروبا القرن التاسع عشر . فمن المعروف أن بيع الزوجات كان أمراً شائعاً في إنكلترا في هذا القرن ، وأنه كان يتم في الغالب في سوق الماشية (ص ص ٢١ - ٢٢) . فكيف للرحلة بعد هذا (وهم يحملون كل هذه الأفكار عن المرأة في مجتمعهم ، وكل هذا الاحسان بتفوق ثقافتهم وحضارتهم ، وكل تلك الرغبة في ارضاً جمهور من القراء يود أن يقرأ ما يدغدغ أحلامه المستقاة من عالم *اللليالي العربية* The Arabian Nights والتلوّة ويؤكد له استمرارية هذا العالم في تلك البقعة من العالم القديم الفاتن الغريب العجيب) أن ينقلوا صورة حقيقة عن المرأة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا . إن ما مستمعم أقلامهم تدوينه لن يعدو تثبت الحقائق المسنة المتخللة عن هذا المخلوق التعيس الذي يلفه المجهول ويلفه الغريب وتحول بينه وبين ملاحظيه السذود والقيود التي توقد في أعماق هؤلاء الملاحظين مشامر

الرغبة العارمة في اقتحام هذا العالم بشتى السبل حتى ولو كانت منافية لأبسط قواعد السلوك الأوروبي ، وتلك قمة النفاق .

نعم لقد كان الرحالة أسرى أهوائهم التي حالت بينهم وبين رؤية الواقع المرأة الشرقية كما هو مثلاً تحول واقيات عيون حصان السباق بينه وبين رؤية ما حوله باستثناء مضمار السباق الذي يتوجه نحوه بكل ما فيه . ولذلك فانهم لم يلتفتوا الى نشاط المرأة العربية في الميدان الثقافي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(٧) ، وهو نشاط يعتبر اومهم اذا ما قيس بنشاط المرأة الاوروبية في تلك الفترة ، ولم يتبيّنوا ان تلك المرأة كانت تتمتع بمقدار من الحرية في الخروج من منزلها ، وقطط من النفوذ والسلطة في هذا المنزل ، ومكانة سامية بين ساكنيه من اب او اخ او زوج او ابن ، لم تتيّس مطلقاً للمرأة الاوروبية . وما ذلك الا لأنهم فضلوا الاطمئنان الى الفكرة المسقبقة التي تؤكد أن وضع النساء في الشرق كان يبعث على الاسى ، وان الحرير فيه كان مكاناً للحرمان (ص ص ٨٧-٨)

اما مصدر هذه الفكرة المسقبقة وغيرها من الحقائق المنسوبة الى المرأة الشرقية فانه الف ليلة وليلة ، والتوراة كما بين ذلك الفصل الاول من الكتاب والذي اختارت له السيدة مايرو عنواناً موحياً هو « كل ما قد اردناه ، او رجوناه ، او حلمنا به » (ص ٤٠ - ٢٨) . ان اول ما يتوقعه الرجال الغربي عندما تطا قدماه الشرق الأوسط وشمال افريقيا ان يرى تجسيد ما كان قد قرأه في الطبعات المختلفة لترجمات الليالي العربية *The Arabian Nights* والتوراة ، وفي كتب الرحالة الاخرين ، حبا يسعى بين يديه ومن حوله . ولذا كان كل ما يخالف هذه الصورة المسقبقة استثناء يؤكد القاعدة التي رسختها القراءات السابقة في نفسه . واسوا من هذا ان الكثريين من المصورين والفنانيين الاوروبيين الذين كانوا يجوبون فلسطين وباقى بلاد الشام في القرن التاسع عشر وينتجون صوراً^(٨) كانت تستخدم في كثير من الاحيان لابضاع طبعات التوراة المختلفة ولزيتها وكان الرجال الاوربي عندما يزور هذه الرقعة من العالم فيما بعد ، يقارنون مشاهد الحياة ، التي يراها بام عينه ، وبين تلك الصور والرسوم الايساحية في لسحة من التوراة (التي ربما كان يحملها معه) ويستنتج

بساطة ساذجة أن الحياة في هذه البقعة لم تكن تتغير منذ أكثر من الفي عام (ص ص ٣٥ - ٣٦) . وبالطبع فان القارئ الغربي المسترخي في بيته والذي كان يستمتع بما يقرأه عن شخصيات الليالي العربية والتوراة التي كانت (فيما يزعم الرحالة) تسكن الاقطار المختلفة ، للشرق الاوسط وشمال افريقيا ، كان من السهل عليه ان ينمي في نفسه الاحساس بالتفوق تجاه تلك الاقطار وساكنيها (ص ٣٩) .

ولكن ما يتلو الاثارة التي يولدتها التفكير بأن الرجال قد وطئ من جديد عالم ألف ليلة وليلة هو الاحباط والشعور بالاستبعاد والاحساس المتنامي بالعداوة ازاء هذا العالم الذي تتلفع نساؤه بالحجب وتقيم في حريم يحول بين الرجال ورؤيتها ، او تبادر الحديث معها . وهكذا ينطلق خياله به ليغوصه عما فاته باستبعاده فيمضي الى التفكير بـ « الاسرار الخفية » (ص ص ٤٠ - ٥١) . التي يتناولها الفصل الثاني ، هذه الاسرار التي تعبّر عن الرغبات والاهواء التي بات يحلم أنها تنتظره وراء الحجاب وجدران الحرير ، جمالاً ساحراً ، وغواية لا تقاوم ، ووعوداً بتجارب غريبة وعجيبة في آن معاً .

وعندما يتصل الامر بالمرأة وعالمها في هذه الرقعة من الارض ، تأتي الخيبة سريعاً ويسري شعور بالعجز والاحباط في نفوس الرجال الدين يسقطونه بدورهم على موضوع ملاحظاتهم وهو المرأة . وهكذا تتتابع في كتاباتهم صور الموت والاشباح التي يتحدث عنها الفصل الثالث المعنى بـ « الموت يخرج للمشي » (ص ص ٥١ - ٦٤) . والحقيقة ان الصور التي تنسقط على المرأة الشرق - او سطية تبعث على الاشمئزاز . ففضلاً من النظر الى هذه المرأة على أنها موضوع جنسي (ص ٤) نراها تمسيخ الى سعدان من دون ذيل baboon (ص ٥٤) ، وتشبه بمجموع متحرك من الملابس او ببالون ، او بسفينة ، او بمجموعة متنوعة من الحيوانات كالخيول ، والبط ، والغوريلاس والارانب ، والقطط ، والنمل وغير ذلك أنها باختصار تجرد من انسانيتها ومن أية شخصية او فعل . والمرهون في الامر أن عملية نزع انسانية المرأة سرعان ما تطال ما تنجيه وتنشه

من اجيال او دورها كام في المجتمع الشرقي - اوسطي . يكتب اندريه سيرفييه André Servier عن الام المسلمة وقدرتها بوصفها اما :

« انها امة ابدية ، وجهلها وبربريتها يشقان اولادها الذين تنشئهم وتتمرر لهم اهواءها وافكارها العتيبة . ولما كانت هي ذاتها جاهلة فانها تخلق الجهل ، ولما كانت هي ذاتها بربرية فانها تنشر البربرية من حولها ، ولما كانت هي ذاتها امة فانها تمنع اولادها ارواح العبيد ، مع كل نواقص الارقاء : الرياء ، والخداع ، والزيف (صص ١٧٣ - ١٧٤)

وكان ذلك لم يكف الرحالة ، لاننا نراهم يسعون الى « رفع الحجب » ووصف المرأة لقرائهم ، وهو ما يتناوله الفصل الرابع (صص ٩٨ - ٦٤) لقد كان هؤلاء الرحالة غير قادرين على الوصول الى المرأة الشرقية ، او الحديث معها ، ولذلك فانهم كانوا بحاجة الى وسيط . وكان هذا الوسيط زوجة الرجال في الغالب ، او اية امرأة اوربية اخرى ، تقوم بكتابته الفصل المتعلق بالمرأة في كتابه ، او تزوده بالمعلومات الضرورية لكتابته . وكان الرجال يستعينون ، بالإضافة الى ذلك ، بخياله وقراءاته في كتب الرحالة الاخرين ، او في كتاب الف ليلة وليلة ، او التوراة ، مثلما كان يفيد من الزيارات الخاصة التي كانت تنظم له ولصحبه من الرجال لم يفينا (غالبا ما يصفه بتدقيق شديد ، ويؤكد في الوقت نفسه انه كان ملائكة طاهرا لا ينقاد الى اية غواية) . اما النساء من الرحالة فكانت تنظم لهم زيارات خاصة لحريم كان الواحة في هذا المجتمع الشرقي - اوسطي . وكانت المرأة الغربية الزائرة للحريم تنظر في الغالب الى المرأة الشرقية بعيون الرجل وتعزو اي تصرف لا تحبه في هذه المرأة الى كراهية هذه الاخرية للجانب .

وقارئ اوصاف الرحالة للمرأة الشرقية - اوسطية يدرك بسهولة ان الكثير من اللقاءات مع هذه المرأة - التي كان يجري الحديث عنها بمقدار كبير من التفصيل - خيالي في الغالب . وربما كان من اهم ما يسترعى انتباذه فيها أنها مكتوبة بلغة مسرفة في رومانتيتها ، حتى

تكون منسجمة مع «روح الشرق» او بالاحرى مع مزاج المؤلف – الرحال وان بعضها قد استخدم اساسا لتعزيز الفكرة السائدة عن المرأة الشرقية من حيث كونها مغناجا وشهوانية (ص ٩٨) .

والحقيقة ان جميع هذه الاوصاف كانت تفوح منها رائحة الجنس لأنها تعبّر عن رغبات كتبها من الرحالة الذين كانوا يصفون مشاهد الرقص والراقصات مسقطين ما يعتمل في نفوسهم من الرغبات الفاسقة الماجنة على المرأة ذاتها التي يتهمونها غالبا بتأثيرها للشهوات ، وهو اتهام ينبغي ان يوجه اليهم (ص ١٢١) . لقد كان الرحالة الاوربيون في الشرق يجوبونه وهم في حالة من النشوة كما بين ذلك الفصل الخامس المعنون بـ «الحاج كان في نشوة» (ص ص ٩٨ – ١١٧) ، وكانت هذه النشوة ناجمة اساسا عن الرغبات الجامحة التي كانت تجتاحتهم وهم يرون المرأة الشرقية قريبة – ملء العين والاذن – ولكنها بعيدة بلغها الحجاب وتحول دونها جدران الحرير . وكان صوت الجنس فيهم يصرخ دون مجيب وكأنه صيحة في واد كما يبين ذلك الفصل السادس المعنون بـ «صوت الجنس يصرخ في العراء» (ص ص ١١٨ – ١٣٦) الذي يشى بالروح التي كانت تسود اوصاف الرحالة الاوربيين للمرأة الشرقية .

اما الفصل السابع والموسم بـ «احاديث الحب الدنس» (ص ص ١٣٧ – ١٥٤) ففيه مقطوع مختلف لاوصاف دوّنها هؤلاء الرحالة عن العلاقات السائدة في الحرير متأثرين في ذلك بالفصل الذي كتبه ادوارد لين E. Lane عن «نساء مصر» (في كتابه المعروف «سلونه المصريون الحديشين وعاداتهم») (١٩٩٠) والذي يتحدث فيه عن الوان وضروب من السلوك الشاذ في مجتمع المرأة المصرية . ومن المؤسف حقا ان كل بغرض وكرمه ولا يروق الرحالة في وضع المرأة الشرقية كان يعزى الى الاسلام الذي ، يزعم تشارلز بل Charles Bell بكل صفاقة ، انه «لا يمكن ان يربى النساء والعنفة» بين اتباعه (ص ١٤٧) ؛ وان النساء الشرقياتكن «إماء للهوى» (كما يشير الى ذلك الفصل الثامن ص ص ١٥٥ – ١٧٢) في نظر الرحالة الغربيين الذين كانوا في جهل مطبق عندما يتصل الامر بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في القطران التي

زاروها ، وكانوا أساساً غير معنيين بالفقر المنتشر في تلك الأقطار بمقدار غفلتهم عنه في بلدانهم . فقد « كانوا أكثر اهتماماً بایجاد وشائج مع الماضي ليدللوا على أن المجتمع الشرقي لم يتغير منذ آلاف السنين ، أو يبرهنوا أن الإسلام كان سبب البوس المحيط » (ص ١٦٠) . وكانوا في ظل كل ما يقدمون من أوصاف يشون بدخلية نفوسهم أكثر مما يتحدثون عن موضوعهم .

« أما بالنسبة لوضع النساء » (ص ص ١٧٣ - ١٩٦) ، وهو عنوان الفصل التاسع ، فقد صوّر على نحو يبين تفوق وضع المرأة الغربية المسيحية أزاء وضع المرأة الشرقية والذي لم يكن يُؤهلها لتكون أمّا قديرة للاجيال القادمة وبذلك تنسب كل أوصافها على الأمة التي تنتهي إليها ويسهل وبالتالي توسيع استبعادها لأنّه تأدية لعبه الرجل الأبيض في تحضيرها وردها إلى الطريق القوي الذي تمثله المسيحية الغربية . إن حيوات النساء الشرقيات في رأي أولاء الرحال ليسـت غير « حالة من الأسر التام » (ص ص ١٩٧ - ٢٢٢) كما يوضح الفصل العاشر ، وما سوى ذلك استثناء يؤكد صحة القاعدة المطلقة على هذه المرأة ويعزز صحتها .

لقد كان الرحالة الغربيون ، بسبب من احساسهم بالتفوق الشامل لازاء الأقطار التي كانوا يزورونها ويزورون سكانها ، يؤمنون أن لهم حقاً إلهياً في أن يمضوا أينما شاؤوا ليروا ما يريدون في تلك الأقطار . وكان أيمانهم بهذا الحق يدفعهم في الغالب إلى ضروب من السلوك الواقع ، وربما إلى الامتدادات على العرمات الشخصية لأفراد المجتمعات الشرقية ، دون أي تفكير بعقابيل ما يأتونه ، حتى أن بعضهم كان يغرس ببعض فقراء هذه المجتمعات ويدفع لهم ليراقب عملية ختان بنت يجرونها أملمه حباً في أرضاء فضوله العجيب . وكانت المفارقة أن هؤلاء الرحالة كانوا يسقطون مظاهر سلوكهم المزري والمشين على السكان المحليين ويزرون مجتمعهم « مجتمعاً مريباً جداً » (وهو هنا عنوان الفصل العادي عشر ص ٢٢٣ - ٢٥٤) وهو وصف يليق بالفعل بمجتمع الرحالة في الناء حلهم وترحالهم في الشرق الذي كان في نظرهم أدنى بكثير ، وفي كل وجده ،

من غربهم ، لدرجة أن الجرأة دفعت بعضهم إلى النظر إلى المرأة الشرقية على أنها عرق خاص لا يشركها فيه مخلوق آخر (ص ٢٥٥) ، والى تقديم أوصاف عن هذه المرأة ربما كان أوضاع ما يميزها افتقارها إلى المعلومات (ص ٢٥٣) .

وربما كان على القارئ أن يسأل بعد استعراضه لكل تلك المقتطفات الموزعة على الفصول الواحد عشر الماضية أن يسأل « ما الذي كان الانتهاء الأعظم ؟ » (وهو عنوان الفصل الثاني عشر والأخير ص ٢٥٥ - ٢٦٤) فهو تلك المرأة الشرقية الغريبة العجيبة (كما صوّرت في كتب أولاد الرحالة) أم هؤلاء الرحالة الذين كانوا قادرين على إنتاج بيانات مفعمة بالحكم المسبق ، والأهواء المغراضة العميماء ، والآراء العجيبة في المرأة الشرقية التي تكاد تسلب المرأة انفاسه ، وتکاد تخنقه ؟

لقد كان هؤلاء الرحالة في الحقيقة (وكما بينت جودي مابرو في فصول كتابها الشائق والاستفزازي والمشير للغضب مما تقرنه أيدي هؤلاء الرحالة الذين ينتمون إلى العالم الأول بحق نساء من العالم الثالث) في كل ما قدموه من بيانات وأوصاف وروايات وتقارير وانطباعات وصور ومشاهد عن المرأة في الشرق يفصحون عن عقليتهم المشروخة في النظر إلى « الآخر » أكثر مما يتحدثون عن موضوعهم . ولذا كان من الطبيعي أن توزع المقتطفات في الفصول الانني عشر التي تشكل الكتاب على أهوائهم ونزعاتهم وأحكامهم المسبقة . وكذلك فإنهم قدموا للمؤلفة عناوين معظم فصوله الموحية التي كانت موفقة غاية التوفيق في اختيارها لها لأنها تفصح بحق عما كان يدور في دخائل نفوسهم . فعنوان الفصل الثالث « الموت يخرج للمشي » مستمد من الكاتب الفرنسي غي دو موباسان Guy de Maupassant في وصفه للقيروان ، وعنوان الفصل السادس « صوت الجنس يصرخ في العراء » مستمد من دوغلاس سلين Den Douglas Sladen في وصفه لراقصة شرقية في تونس ؟ وعنوان الفصل العاشر « حالة من الاسر التام » مستمد من ويليام راي ويلسون William Rae Wilson في وصفه للنساء في مصر ؟ وعنوان الفصل العادي عشر « مجتمع مرعب جداً » مستمد من لويس وينفيلد

Lewis Wingfield في وصفه لمجتمع النساء في الحريم ؛ وعنوان الفصل الثاني عشر والأخير « ما الذي كان الانتهاك الأعظم ؟ » مستمد من هربرت فيفيان Herbert Vivian في وصفه لتونس .

والحقيقة أن ما ضمته هذه الفصول من مقتطفات مشيرة بكلد يكون وبحق مرايا مجلوّة تبدو فيها نفوس هؤلاء الرحالة وعقولهم وطرق تفكيرهم ورؤاهم للعالم المحيط بهم . وهو ما يجعل هذا الكتاب كتابا شجاعا لأنه يضع الأوروبيين المعاصرين وجها لوجه أمام جذور مواقفهم الراهنة من الشرق وأهله ، ويبين لهم أصول تحيزاتهم وبغضائهم واستهانتهم بهذا الآخر – العجم الذي يفترض بالغرب أن يرد له جميله عليه عندما أسمهم في نهضته التي قامت على ما قدمته الحضارة العربية – الإسلامية من معرفة وتقدم علمي فيسائر الميادين . إن موقف الأوروبيين المعاصرين من الشرق متجلدة في تلك الصور التي نقلها هؤلاء الرحالة وأمثالهم والتي كانت نتيجة طبيعية لهذا اللقاء غير المجدى بين الشرق والغرب ، لأن طرفه الأهم – وهم هؤلاء الرحالة القادمون من مجتمع اكثر قدما – لم يعد نفسه الاهداء اللازم فيما يبدو للقاء حضاري مجد ومثمر مع الشرق الذي قصد بغابات ودوافع مختلفة – ليست كلها سامية ومشعرة ونبيلة وربما كان من نافلة القول الاشارة الى ان قلة قليلة من هؤلاء الرحالة تستطيع ان تزعم انها قادرة على تلبية حقيقة لمتطلبات الرحالة . وهذا ما يؤكد الروحاني والباحث الفرنسي فولنلي Volney منذ القرن الثامن عشر . يقول فولنلي ، الذي يبدو انه أعد نفسه على نحو افضل من رحالة القرنين التاليين ، « انه لفهم طبيعة السكان في بلد ما ينبعى العيش بينهم ، وتعلم لغتهم ، وممارسة عاداتهم » وثمة امور أخرى لابد للرحالة من ان يأخذوا بها انفسهم وهي ، كما يضاف :

« ان عليهم ليس فقط ان يصارعوا جميع الاهواء التي يواجهونها ، بل ان يتجرأوا كذلك تلك الاهواء التي يحملونها معهم : فالقلب منحاز والعادات لوبية ، والحقائق ماكرة ، والتوهם سهل . ولذا فان على الملاحظ ان يكون حذرا ، ولكن ليس جبانا ، وعلى القراء الذين لا يستطيعون ان يروا الا من خلال عيون الوسيط ، ان يرافقوا كل من حكم الدليل ، وحكمهم الخاص بهم ايضا » (ص ٢٧) .

وفضلاً عما تقدم ، فإن كتاب مابرو رائع التوقيت في ظهوره ، لأن ما يروج له الغرب اليوم من نظام عالمي جديد *New World Order* يستبدل بالمواجهة التعاون والحوار بين الدول والشعوب والقوى المختلفة ينبغي أن يؤسس على المساواة والعدل والاحترام المتبادل فيما بينها . و هو أمر لا يمكن أن يتحقق مع بقاء الأفكار المسبقة ، والآهواء المغرضة ، والاحكام الناجزة عن الآخرين . و شجاعة السيدة جو دي مابرو في مواجهتها للمجتمع الغربي بجزء من نفسه وروحه وعقله كما تعكسه كتابات هؤلاء الرحالة ينبغي أن تقابل بشجاعة أكبر من القارئ الغربي تتبدىء أساساً في تغلبه على آهوانه ونزاعاته وأحكامه المسبقة عن الشرق واهله ، لأنها تجعل من الأمم والشعوب طبقات وتلك عنصرية نبذتها الإنسانية وادانتها منذ زمن .

حواشي :

(١) أدوارد سعيد ، الاستشراف : المعرفة ، السلطة ، الانشاء ، نقله إلى العربية كمال أبو ديب ، ط ٢ ، (مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٤) .

Veiled Half - Truths : Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women (I. B. Tauris, London and New York, 1991). (٢)

(٣) تشير جميع أرقام الصفحات الواردة بين فوسين إلى صفحات الكتاب المقدم ذكره في العاشرية (٢) .

(٤) أدوارد سعيد ، الاستشراف ، ص (٢٨) .

Rana Kabbani، (٥) انظر :

Europ's Myths of Orient : Devise and Rule
(Macmillan, London, 1986) P. 1.

(٦) انظر دنا قباني ، اساطير أوروبا عن الشرق : الفقائد ، ترجمة د. صباح قباني (دار طлас ، دمشق ، ١٩٨٦) ، مقدمة المؤلفة للطبعة العربية ص (١١) .

(٧) انظر نماذج من الكتابات النسائية العربية في
Margot Badran and Miriam Cooke (eds.),

**Openning the Gates : A Century of Arab Feminist
Writing,** (Virago, London, 1990).

(٨) انظر على سبيل المثال كتاب :

رحالة في الأرض القديمة: صورة للشرق الأوسط ١٨٣٩ - ١٩١٩ الذي يضم نحواً من ٢٦٥ صورة بالبيض والأسود عن الحياة في منطقة الشرق الأوسط في تلك الفترة كما تبنت في عيون المصورين الأوروبيين الفوضوية والرومانسية في أن مما كما يشير الى ذلك مللاف الكتاب .

Louis Vauczek and Gail Buckland,

**Travellers in Ancient Lands : A Portrait of the Middle East,
1839 - 1919** (New York Graphic Society, Boston, 1981)

Edward William Lane,

The Manners and Customs of the Modern Egyptians,
(Dent, London, 1960).

وقد نشرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٨٣٩ .



مَجَلَّةُ ثِقَافَتِهِ شَهْرِيَّة

* المَرْأَةُ بَيْنَ الثِّقَافَتَيْنِ وَالذَّاكِرَةِ

الدَّكْتُورَةُ نِجَاحُ الْعَطَّارُ وزَيْرَةُ الثِّقَافَةِ

* اِحْرَكَةُ اِبْجُوهِيرِيَّةِ وَالْوِجُودِ فِي الْفَلْسَفَةِ الْمُتَعَالِيَّةِ عِنْدَ الشِّيرَازِيِّ بِدَالْفَتَاحِ قَلْمَبِي

* التَّسْفِيَّةُ وَالْدِيمَقْرَاطِيَّةُ دَسِيدِي مُحَمَّدُ وَلِدُ مُحَمَّدٍ

* الْاِنْثِرُوبُولُوْجِيَّةُ التَّرَبُوْيَّةُ وَالثِّقَافَةُ الْمُعَاصِرَةُ بَهَاءُ الدِّينِ الرَّزْهُوْرِيِّ

* الْمُدَبَّبَاتُ فِي الشَّرْقِ : نِسَاءُ الشَّرْقِ فِي عِيُونِ الرِّحَالِ التَّافِرِيَّيْنِ دَسِيدِي اِصْطِيفِ

* النَّسَدِيَّ شَعَرٌ بِدَالْقَادِرِ الْحَصَنِيِّ

* اِخْتِفَاءُ الرَّجُلِ الْمُسْكُونِ قَصَّةٌ مُصْطَفِي يَعْدَ